بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا هو الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي، وهو خاص بالجزيرة العربية والعراق وإيران في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث. وكان المؤرخون للأدب العربي يدخلون منه نحو ثلاثة قرون في العصر العباسي الثاني منتهين به حتى سنة ٦٥٦ حين أغار قطعان التتار على بغداد وقوضوا ما كان فيها مدنية وحضارة. وكان هؤلاء المؤرخون يسمون الحقب التالية حتى الغزو العثماني لمصر والشام والعراق باسم العصر المغولي، وسموا فترة حكم العثمانيين لتلك البلدان باسم العصر العثماني. وكل ذلك تصور مخطئ، لأن سلطان الخلافة العباسية تتقلص ظلاله منذ سنة ٣٣٤ بحيث لا يكاد يبقى للخلفاء العباسيين منه في كثير من الأمر سوي بغداد، فقد كانت إيران بيد بني بويه ونفس العراق أظله سلطانهم، وكانت البحرين واليمامة بيد القرامطة، وكانت الموصل وحلب بيد الحمدانيين، ومصر والشام بيد الإخشيد، والمغرب وإفريقيا بيد الفاطميين، والأندلس بيد عبد الرحمن الناصر. وتعاقبت دول كثيرة في اليمن وفي أنحاء الجزيرة العربية، وبالمثل في كل البلدان والأقاليم المذكورة، بحيث يصبح من الخطأ أن تنسب القرون: الرابع والخامس والسادس حتى منتصف السابع إلى الخلافة العباسية، وحتى ما بقى لها من اعتراف بالولاء في بعض الدول والإمارات إنما كان اعترافا اسميا، لا يدل على أي سلطان وراءه. ومن الخطأ الإبقاء على تسمية القرون الثلاثة التالية لغزو التتار بغداد باسم العصر المغولي، بينما كان سلطان المغول فيها لا يتجاوز إيران والعراق دون بقية العالم العربي، وتلك البقية هي الشطر الأكبر منه: الجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب والأندلس، لذلك رأينا أن ندمج العصر المغولي في عصر الدول والإمارات، لأن هذه التسمية هي الألصق بالعصر، وهي أكثر دقة ومطابقة للواقع. وبالمثل أدمجنا فيه ما سمي بالعصر العثماني، لأنه لم يكن عصرا بالمعنى الحقيقي، وإنما كان حقبة ممتدة، تتمة لعصر الدول والإمارات، وثمرة مرة لما أصاب العرب فيه من انقسام وتفكك.

openkanal.com

وحقا يكون عصر الدول والإمارات في تاريخ الأدب العربي بذلك عصرا طويلا، غير أن طوله لا يعني أي تفاصل روحي أو فكري بين دوله وإماراته، فقد كان هناك دائما شعور عام في كل مكان بأن هذه الإمارات والدول جميعا إنما هي وطن عربي واحد، وطن لا تحدث فيه الانقسامات أي تقاطع علمي أو أي تنابذ أدبي، وطن تتواصل أجزاؤه ووحداته تواصل الأفراد في أسرة واحدة. ولذلك مظاهر شتى، فقد كان العلماء حين يؤلفون كتاب تراجم عاما يجمعون فيه كل ما عاشوا من النابهين في هذا الوطن الكبير، وكانوا إذا ألفوا كتابا في تراجم علم كالقراءات أو التفسير أو النحو أو حتى في فرع كفقه الشافعية أو المالكية أو الأحناف أو الحنابلة جمعوا فيه علماؤه في جميع البلدان العربية، وبالمثل حين يؤلفون أحيانا في تراجم الشعراء يجمعون في مؤلفاتهم كل الشعراء في جميع الأقاليم العربية، متناسين، بل مهملين، الفواصل السياسية والجغرافية بين الأقاليم والبلدان، وكأنها في رأيهم أقواس وهمية في المخططات السياسية والجغرافية، لا تدل أي دلالة على فوارق علمية أو أدبية. ومظهر ثان، هو أن الكتاب حين كان يؤلف يصبح ملكا لعلماء العالم العربي جميعهم، فهم يشرحونه أو يشرحون شرحه أو يكتبون تقارير عليه، يشترك في ذلك قاصيهم ودانيهم ومن أقصى المشرق ومن أقصى المغرب، ونضرب لذلك مثلا كتاب أو متن التلخيص في علوم البلاغة للقزويني الدمشقي المتوفى في القرن الثامن الهجري، فقد شرحه علماء من مصر ومن المغرب ومن أقصى المشرق، فهو ليس كتاب دمشق وحدها بل هو كتاب البلدان العربية جميعها. ونضرب مثلا ثانيا ديوان المتنبي فإنه لم يكد يبقى بلد عربي إلا وتجرد له عالم من علمائه يشرحه ويعرض شرحه على الطلاب، ومن أهم شروحه شرح ابن جني والعكبري في العراق وشرح ابن المستوفي في إربل وشرح أبي العلاء المعري في الشام وشرح الواحدي في إيران وشرح الإفليلي وابن سيده في الأندلس، غير شروح أخرى، وغير دراسات نقدية لا تكاد تحصي، وكأن ديوانه ليس ديوان بلد بعينه، وإنما هو ديوان الأمة العربية جميعها. وليس ذلك فحسب،، فإن ابن هانئ الأندلسي توفي بعده بنحو ثمانية أعوام، وقد درس شعره وتمثل منهجه تمثلا تاما، بحيث كان ينظم أشعاره على غراره، وبحيث سماه النقاد متنبي الأندلس. وكان ذلك يصور بقوة وحدة الشعور

والفكر في هذا العصر المتطاول عصر الدول والإمارات، وهي وحدة ظل الشعر كما ظل النثر، وظل الأدب كما ظل العلم، مرآتها الصافية.

وقد بدأنا حديثنا عن الجزيرة العربية بعرض الحياة السياسية لأقاليمها الأساسية في هذا العصر، وهي الحجاز ونجد واليمن وحضرموت وظفار وعمان والبحرين، وعرضنا مجتمعها البدوي والحضري وما كان فيها من نحل شيعية وخارجية وما شعا في نجد من الدعوة الوهابية، وما حف بذلك من زهد ونسك. وصورنا جداول الثقافة التي كانت تجري في كل مكان وما رافقها من نشاط العلوم اللغوية والإسلامية. كما صورنا نشاط الشعر في الأقاليم المختلفة للجزيرة وطوائفه المتقابلة من شعراء مديح ورثاء وفخر وهجاء وأهم شعراء الدعوات المختلفة من إسماعيليين وزيديين وخوارج ووهابيين، وبالمثل شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية. وأوضحنا ما كان من نشاط للكتابة في نجد وغيرها من أقاليم الجزيرة وما كان من نمو كتابة الرسائل الديوانية والشخصية، ونمو الوعظ المحاورات والرسائل الأدبية.

وبالمثل تحدثنا عن العراق وحياتها السياسية وما تعاقب عليها من دول وكيف أن مجتمعها كان يتألف من ثلاث طبقات: عليا مترفة، ووسطي على شيء من اليسار، ودنيا بائسة، وشيوع المذهب الإمامي الأثنى عشري بها وشيوع الزهد والتصوف وطرقه، وما كان من نشاط الحركة العلمية بها وتأسيس جامعتي النظامية والمستنصرية ببغداد، وكثرة المدارس هناك مع ما كان في المساجد من نشاط علمي واسع، بحيث أصبحت الثقافة- حتى الثقافة الفلسفية- غذاء شعبيا عاما. وتتكاثر بغداد الندوات الفكرية، وتتكاثر الكتابات الفلسفية والطبية والعلمية، كما تتكاثر البحوث اللغوية والنحوية والنقدية، وتنشط الدراسات الإسلامية والتاريخية. ويكثر الشعراء في العراق كثرة مفرطة وينظمون في الرباعيات والموشحات. وتتقابل طوائفهم من شعراء مديح على رأسهم المتنبي إلى شعراء رثاء وهجاء وشكوى، وشعراء غزل وقد نفذوا إلى ضرب جديد من الشعر الوجداني. وبجانبهم شعراء لهو مجون، وشعراء زهد وتصوف ومدائح نبوية، وشعراء فلسفة وشعر تعليمي، وشعراء شعبيون. ويتنوع النثر تنوعا واسعا، فمن نثر فلسفي إلى نثر

علمي ومناظرات ووعظ وقصص ورسائل شخصية وديوانية، وتتألق أسماء طائفة من الكتاب النابهين.

وتحدثنا عن إيران وأحوالها السياسية والدول المتقابلة بها والمتعاقبة، وعن مجتمعها والطبقات التي كانت تكونه: العليا والوسطي والدنيا، وعن نشاط الشيعة بها: الزيدية والإمامية والإسماعيلية وما كان يسري فيها من زهد وتصوف.وعرضنا الحركة العلمية بها والعناية بالمدارس والمكتبات وما حدث هناك من نشاط في دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل، وفي وضع المعاجم والبحوث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية، وفي الدراسات الإسلامية والكتابة التاريخية. ويزدهر الشعر بإيران في القرنين الرابع والخامس للهجرة، ويظل حيا ناميا حتى القرن التاسع، ويتكاثر شعراء المديح والرثاء والفخر والهجاء والشكوى والغزل واللهو والمجون والزهد والتصوف والفلسفة والحكمة والأمثال وأصحاب الشعر الشعبي، ويتنوع النثر ويظهر فيه قصص صوفي كثير وقصص فلسفي بديع ويتكاثر كتاب الرسائل الديوانية والشخصية، ويلمع في كل دولة وإمارة غير كاتب بارع.

وهذه الدراسة المتشعبة لتاريخ الأدب العربي في الجزيرة العربية والعراق وإيران طوال حقب ممتدة من العصر العباسي الثاني إلى العصر الحديث جعلتني أرجع إلى كل ما استطعت من كتب التاريخ والجغرافية والثقافة والأدب شعرا ونثرا لأجمع منها المادة العلمية التي تتطلبها الدراسة. ورجعت إلى طائفة من كتبا المحدثين من العرب والمستشرقين. وأعترف بأن عقبات كثيرة صادفتني وخاصة في المصادر والحصول عليها، وقلتها أحيانا في بعض الجوانب. وقد حاولت جهدي أن أرسم المعالم الأساسية لتاريخ الأدب في تلك الأقاليم أثناء هذه الحب المتطاولة، ولا أزعم أنني استطعت أن أوفي هذا الرسم حقه كاملا من الدقة والاستقصاء. والله ولي الهدى والتوفيق.

القاهرة في أول يونية سنة ١٩٨٠ م.

شوقي ضيف

obeikandl.com